تاريخ المكان وتخييل المرجع
في رواية الزلزال (للطاهر وطار)

أ/ عبد الرزاق بن دحمان
كليـــــة الآداب واللغـــات
جامعـــة بسكـــرة

الملخص :

عرف فن الرواية – كجنس أدبي – تطورا نوعيا غير محدود ، ولاسيما فـــي زمـــن الحداثـــة التاريخية ، إذ تحولت الأحـــداث التاريخية عن طريق الرواية إلى لحظـــات مصيريـــة عامـــة مـــن تاريـــخ الإنســـان وعليه لـــم تعـــد الرواية تسجيلا للأحداث والوقائـــع ، بـــل أصبحت قـــراءة أخرى للتاريخ الهامشـــي الـــذي يلامس عمـــق الإنســـان ومصيـــره ومـــن هذا التصور استطاعت الرواية الحديثة أن تكتب تاريخ الإنسان بمفاهيم ورؤى قادرة على إعـــادة توطيد الصلـــة بين معالم التاريخ ، ومعنى الإنسان .

Résumé:

Le roman comme genre littéraire spécifiquement déterminé a connu un essor considérable à l'époque moderne . Son extraordinaire ascension se voie nourrie par des Evénements historiques qui sont La trame même de ses fictions et qui lui ajoutent une certaine vraisemblance.

Le roman sert alors les historiens Par Ses procédés de ramatisation Pour dire l'histoire : ainsi avec ses personnages représentatifs , il est susceptible de mettre en scène les rapports des individus qui ont du pouvoir sur le cours de l'histoire d'un pays. Ce qui a donné naissanc e au roman historique.

En effet, l'histoire ne devient plus Cette conception des événements Passés mais ce récit de fresques sociales où se fécondent les idées.

"حاسة الشم تطغى على باقي الحواس،في قسنطينة،في كل خطوة،وفي كل التفاتة ،وفي كل نفس تبرز رائحة مميزة ،تقدم نفسها لأعصاب وقلب المرء...." (1)

بهذا المقطع السردي (الوصفي) يفتتح الأديب (الطاهر وطار) روايته "الزلزال"،وهي المشروع الروائي المنجز في مرحلة ما بعد الاستقلال ،إنه مقطع يجمع شتات المكان ليهيئ جوا دراميا ستحتضنه مدينة (قسنطينة) .....

سير الرواية :

بطل رواية"الزلزال "هو :الشيخ (عبد المجيد بولرواح)رجل ينحدر من أسرة إقطاعية ذات مكانة وشأن في الأوساط الاجتماعية ،يعود إلى (قسنطينة) مسقط رأسه بعد غياب دام ستة عشرة سنة ،بهدف انقاض أراضيه من قرار الدولة الرامي إلى تأميم جميع الأراضي الزراعية وفق قانون (الثورة الزراعية) ، وذلك بتوزيعها على أقاربه الذين نسيهم ،ولم يتذكرهم إلا بعد صدور هذا القانون، فيعزم على مغادرة (العاصمة) التي يشتغل بها مديرا لثانوية ، قاصدا (قسنطبنة) ، التي احتضنت نشأته وتعلمه ، فهي مهد طفولته ، ومعقل أصحابه ،وأقاربه .....

تتوزع الرواية على سبعة فصول ، وكل فصل يحمل اسم جسر من جسور (قسنطينة) فتبدأ بجسر "باب القنطرة" وتنتهي بجسر "الهواء" وعلى هذه الصورة تنمو أحداث الرواية وهي تقلب جغرافيا الأمكنة من خلال انتقال "بولرواح " من مكان إلى أخر .

في هذه الرواية يستحوذ "بولرواح " على كل أحداث الرواية ،فهو الشخصية لمركزية والمهيمنة في هذا المتن الروائي ،وهو " الخيط الذي يربط بين جميع احداث الرواية وبقية شخوصها "(2).

تخبرنا الرواية ، أن "بولرواح" رجل مثقف مطلع على أصول الدين ،ملم بقضايا اللغة العربية مكنته حالته الاجتماعية بأن يواصل مشواره التعليمي ،وكيف لا وهوابن " قايد " مكنته (فرنسا) بأن يصبح ثريا مالكا لكثير من الأراضي الفلاحية ،إلى أن وطد كيانه وأصبح من كبار الأساتذة في النحو والصرف وعلوم الدين ،وعلى نقيض من ذلك تحدثنا الرواية أيضا عن شقاء أسرة "بولرواح"وكيف لاحقتها اللعنة منذ الجد نتيجة الغدر والخيانة

والشذوذ الجنسي، فبولرواح ولد في مستنقع من دم فما ورث إلا الحقد والبخل والقتل وقل ما شئت من صنوف الشر وأشكال الجهل .

ولا نريد في هذا المقام التوسع في معرفة أحوال هذه الشخصية ، بقدر ما أردنا تتبع مسار السرد والبناء من خلال فصول الرواية ،يقينا منا بأن كل فصل يرسم جسرا إخباريا يطلعنا على حقائق ذات صلة بالمكان، والزمن، و الشخصية.

ولتكن البداية من جسور (قسنطينة) :

باب القنطرة : وصول "بولرواح" بسيارته الخاصة إلى مدينة قسنطينة ، فتعمل ذاكرته على استرجاع ملامح المدينة ، فيتقزز- لأول وهلة – من شكلها الحاضر مقارنا إياها بما كانت عليه :

" لا ،الحق ،الحق المدينة انقلبت رأسا على عقب .
زمن الفرنسيين كانت هادئة .هادئة بشكل ملفت
للنظر ،تدب الحياة فيها مع مطلع النهار رويدا رويدا
وتزدهر بين العاشرة ومنتصف النهار ثم تخفت فجأة
حتى الساعة الثالثة .....
تتألق الأنوار وتنطلق العطور من الغادات الأوروبيات
والإسرائيليات اللائي يملأن الشوارع ، كالحلويات ، بهجة وحبورا .... "(3)

ثم يلتفت "بولرواح " إلى هذا الغليان الشعبي الذي حيره ،وكيف توالد فجأة :

" لا .المدينة تغيرت فاضت بالبشر . نصف مليون على صخرة .
لا هذا كثير عاوده الشعور باللون الداكن في أعماقه .." (4)

يتابع " البطل مسيرته وفي كل لحظة تهتز أعصابه حين يرى مظهرا لايلائم مزاجه الرجعي المستمد من الذكريات الماضية ،في هذا الفصل ترصد عيناه كل صغيرة وكبيرة فلا مجال هنا للسكون أو الثبات ، فكل شيء يثير النفس والإحساس ، الروائح تنبعث من هناك ، حركات المارة تقتحم الشوارع ، الأصوات مثل الروائح ، وها هو يستمع لخطبة الجمعة ،يتحدث فيها الشيخ عن هول الزلزال وعظمته ، وذهول المرضعة عما أرضعت تكون الساعة ،ويظهر الناس وكأنهم سكارى وماهم بسكارى ....

المدينة تغيرت ، والوجوه لم يألفها المكان ، المطاعم والدكاكين فقدت مظهرها ، والدروب ما تزال على ما هي عليه، مظهر الناس أفقد المدينة جمالها ورونقها .... ؟؟

تتواصل الرحلة ، يتعرف بولرواح على صديقه القديم "بالباي " وهو جالس طلبا للراحة وتناول الطعام ،فيتعرفا على بعضهما بعضا فيستطردان في الحديث ،فيخبره عن مشروعه القاضي بتوزيع أراضيه الزراعية على أقاربه بشكل صوري حتى لا تؤمم وتأخذها الدولة وبعدها يعلن الرجلان تذمرهما الشديد من هذه الأوضاع التي آلت إليها البلاد :

" نعم قرب أذنك المسألة سر ولا يعلم بها إلا القليل النادر ،اسمع سيسطون على أرزاق الناس .

ـ على أرزاق الناس ؟؟

– هناك مشروع إلحادي خطير يهيأ في الخفاء

– تقول ؟؟

– نعم ينتزعون الأرض من أصحابها ؟؟

– استمع إلي . يؤمموها

– وماذا يفعلون بها ؟؟

– مثلما فعلوا بالأراضي التي خلفها الفرنسيون

– تصور ،الحقد الحسد ،كل إناء بما فيه يرشح .. "(5)

يلج "بولرواح " أعماق المدينة ،عله يعثر على أقاربه ...

سيدي مسيد: مازال "بولرواح" ينتقل في الشوارع باحثا عن أقاربه كاشفا في الوقت ذاته وجه مدينة (قسنطينة) الذي أصبح منفرا خلافا ما كان عليه في زمن الإستعمار :

" ابن خلدون يخلد في النارعلى عبارته ، فالعرب الذين جاءوا بالدين الحنيف ،لا يمكن أن يكونوا شعارا لخراب الحياة .. لكن هاهوالواقع يصدقه ،فلم يقتصروا على تخريب الحياة فقط وإنما انطلقوا إلى الدين يخربونه ." (6)

كل مظهر من مظاهر المدينة يبعث في النفس السأم والتذمر، إنه الحاضر الذي تبدل فيه كل شيء ، وهكذا في كل موضع تزداد عقد "بولرواح " الذي مازال يبحث عن شجرة عائلته وبعد طول عناء يقرر الجلوس في مقهى عله يتذكر بعض الأسماء ويكمل مشروعه الذي قدم من أجله ، وبعد طول استغراق عاد بذاكرته إلى الوراء فاستحضر بعضا من

أقاربه فتذكر اسم ابن عمه(عبد القادر) والذي لم يره طيلة ثلاثين سنة ، ثم تذكر اسم (عيسى)والذي حفظ القرآن الكريم وتفقه في شؤون الشريعة ، ثم استعاد اسم ابن عم أبيه (الرزقي البرادعي) وهو رجل معتدل عارف شؤون نفسه ،ثم تذكر ابن عمه (الطاهر بولرواح)الذي أصبح ضابطا في الجيش ...

سيدي راشد :في هذا النهج يجد (بولرواح) نفسه مقذوفا وسط شارع ضخم يعج بالحركة بعد أن غادر المقهى لا شيء في نفسه غير هاجس الزلزال ، في هذه الأثناء يتعرف على صديق قديم وبعد حديث طويل بينهما عرف (بولرواح) أن (عمار) قد استشهد، فيعزم على مواصلة البحث ، فقرر الذهاب إلى زاوية (عبد المؤمن) ليسأل عن (الطاهر) فيجده تحول إلى نقابي :

- لعلك تسأل عن سيدي بولرواح
- نعم عيسى بولرواح .ابن خالتي
- جئت متأخرا يا أبي
- ماذا تقول ؟ ألم به مكروه ؟
- حدثت له أشياء غريبة في حياته أخرجته عن طوره
- كيف ذلك ؟
- لقد تحول إلى نقابي إلى شيوعي ،فيما بيننا .
- عيسى مقدم الشاذلية يتحول إلى نقابي .إلى شيوعي" (7)

يحاول الروائي في هذا الفصل أن يجعل من هذه الشخصية ، شخصية ناقمة على المجتمع جامعة لكل صفات الطمع والبخل ناكرا لكل تطور اجتماعي ،لا يريد للفقراء أن يتحسن حالهم وتتغير وضعيتهم الاجتماعية ،" فاعتلى الذين كانوا في الأسفل ونزل الأعلون وهذا هو الزلزال الحقيقي " (8)

هكذا هو حال "بولرواح" تراه يمشي وسط الشوارع ، وهو يلعن القدر راجعا بذاكرته إلى زمن الماضي ،حيث كان الخير والنعيم :

" ظل يجتر في سره وهو يتقاذف في الزقاق وسط الروائح ،مسترقا النظر في كل خطوة إلى المطاعم والمتاجر حوله ،ويعجب من الحركة التي تدب فيها ..."(9).

مجاز الغنم : رحلة البحث ماتزال متواصلة ، بدأ "بولرواح " بفقد السيطرة على نفسه وبدأت هواجس القلق والتوتر تظهر على وجهه، يصر على التحرك والبحث عله يجد مخرجا لمشكلته ،والنجاة من قرار " التأميم " .

في هذا الجو يشعر "بولرواح " بالندم فتسكنه عقدة التفريط ، كونه لم يخلف أولادا ولم يستطع أن يكون أسرة وعائلة،وفجأة يسترجع قواه ويستدرك أمره ويعود إلى مشروعه المركزي ،أثناء سيره يصطدم بدكان يخيل إليه أنه يعرفه ويعرف صاحبه. لكـــن فيما بعد خاب ظنه ، أن هذا الشواء (صاحب المحل) لا يعرف ابن عمه (عبد القادر) ..

تزداد رغبته في البحث عن ابن عمه (عبد القادر) فيكتشف من أحد السكان أنه أصبح أستاذا كبيرا بالثانوية : "يا سيدي بن سيدي عبد القادر بن عمك ،أستاذ .

أستاذ في ثانوية .

أستاذ ؟؟ ماذا ؟ هكذا بهذه السهولة ؟ .. (10)

يحدق "بولرواح " في الشوارع والطرقات يتوسل إلى (سيدي راشد)عله يتقبل منه الدعاء بأن يفتك بهؤلاء الناس ويبدد شملهم ,,,,,

جسر المصعد :عاد " بولرواح" بخياله إلى الماضي فيسترجع شريط الذكريات فتحضره صورة أبيه وكيف تواطأ مع فرنسا فنصبته (قايد) فتحصل على كثير من الأراضي ،فتجتمع في ذهنه عدة صوروأحداث ،فيتذكر زواجه وهو في،سن الخامسة عشرة من عمره ،وكيف سافر إلى (تونس) ليدرس (بالزيتونة) هكذا قال له أبوه "أخوك الكبير يذهب إلى الجيش،وأنت تذهب إلى جامع الزيتونة"(11) ....

وفي هذا الفصل يستحضر البطل ،حمام الدماء الذي التصق بأبيه وهو يقتل أزواجه الواحدة تلو الأخرى : ".. دفناها بعد سبعة أيام ماتت أمي.بعد سبعة أيام أخرى هربت زوجة أبي الثانية ،بعد سبعة أيام أخرى دفنت زوجة أبي الثالثة ..."(12)

وبهذه الصورة المأساوية المحفوفة بالفجيعة والألم ،يرث "بولرواح " من أسرته هذه الحياة التعيسة ،فهو إذن امتداد طبيعي لجذوره ولأسرته ،بل والغريب من ذلك يتحدث عن نفسه قائلا : "زوجة أبي الثانية كانت تقول عني :رأس البومة وجه النحس منذ برز إلى الحياة برزت معه الآلام كل مولود في البيت يموت .كل زوجة يتزوج عليها .أكل رأس زوجته ....." (13)

– **جسر الشياطين** : صور الماضي ماتزال حاضرة في ذاكرته ، وفي هــذه المــرة لايجد من حديث إلا عن اليهود ،تاريخهم وسياستهم في إدارة الأحداث ،وكذا تعايشهم مع الجزائريين ، " لوبقي اليهود في قسنطينة ،ما كان بالباي يتردى إلى ما تردى إليه ..... يهود الجزائر لم يكونوا أذكياء كانوا أغبى يهود العالم .كانوا غير يهود،"(14).

يواصل "بولــرواح " رحلة البحث عــن أحد أقاربــه ، وبالخصوص ابن عم أبيه (الرزقي البرادعي) والذي تركه في سن الأربعين ،كما يتذكر ،فالكل تغير وتحول إلا (الرزقي) .."

" لــن يكون الرزقي ضابطا ، ولا شهيدا ، ولا أستاذا أو معلما ، أو مدير تكميلية أو وزيرا أو مستشارا أو واليــا أو محافظا ....."(15)

لم يستطع "بولرواح" الصمود أمام هذه التحولات التي مست كل فرد في المجتمع شعر حينها بالدوار ،فلم يعد يدري أين بوجد ،فاختلطت في ذهنه الأفكار ،بعد أن تبخرت أحلامه ،وذهبت ريحه " وشعر أن المادة السائلة طفحت من فمه وأنفه وعينيه ..." (16) شعر بالذعر والخوف ،وهو ينادي ويصرخ بأعلى صوته.....يركض:الزلزال الزلزال،الزلزال .

– **جسر الهواء** : غادر "بولرواح " جسر الشياطين " لتكون وجهته (جسر الهواء) ، وفي هــذه الأثناء وجد نفسه عند باب القنطرة ،ضاقت نفسه ،والحرارة تنبعث من كامل جسمه ارتفعت إلى أذنه صيحات الأطفال ،الذين تجمعوا في شكل صفوف ،تعالت أصواتهم ،اهتز قلبه فقــد توازنه ، ولم يعد يدري أهو في حلم أم يقظة ،عادت إليه صور زوجاته ،فكانت الذكريات مؤلمة وفجأة خيل إليه أن هؤلاء الأطفال سيقذفونه من أعلى الجسر :

" التفت بسرعة إلى هنا وهناك خيل إليه
أنهم انطلقوا دفعة واحدة نحوه ،وأنهم
سيحملونه ويرمون به إلى القعر .فكر
أن يصرخ مستنجدا ...." (17)

يتوسل إلى سيدي راشد ،اختلطت في ذهنه الأفكار والصور ، وأدرك انه لا هروب ولا مفــر من قبضة القدر،تذكر أقاربه المفقودين ، لاجدوى ؟؟؟ عاد "بولرواح إلى هذيانــه وهو يصرخ ويناجي كل ما خطر على باله ،والأطفال يدفعون به إلى الهروب والتوتــر

اقترب من الجسر ، رمى بسترته إلى أسفل الوادي ، ثم بحذائه ،... يريد الانتحار إلا أن الشرطة تدخلت ألقت عليه القبض ، وسيق إلى المستشفى ..تاركا وراءه صدى أصوات علقت بأذنيه ....

هذه أبرز المشاهد الرئيسة في رواية "الزلزال " ، وهي كما رأينا " رواية تجري في ذهن البطل غير القابل للحديث مع الآخر .." (18)

و ما يمكن تعيينـــه كقراءة جادة لهذا المشروع الروائي ، هـــو وضعه في نســـق ملائـــم للحدث الإجتماعي ، الذي أسس سلطـــة هذا النص المكاني المتميز، انطلاقـــا من تداخـــل الجوانب النصية مع خطابات المجتمع ،الشفهية والمكتوبة .

يقول الباحث (بيار زبما) (Pierre v zima) :

la recherche d'èlèments sociaux dans le domaine formel de la production littèraire , dans le domaine de l'ècriture, ouvre une nouvelle voie à la sociologie de la littèrature " …(19)

فمن عمق هـــذا المفهوم يمكن لنا أن نتصور الجانب المعرفي الذي يشتغل عليه هذا النص الروائي وهو اشتغال يحفر في جغرافيا المكان ،قصد تشييد هندسة معمارية ،تنقل"قسنطينة" من حيز الصمت المكاني إلى مدارات المتخيل .. .

والسؤال اليقيني في هـــذا المجال هو: كيف نقرأ رواية " الزلزال " ؟؟ كيف نقتحم عالمها المتخيل؟؟

تتجاوز رواية "الزلزال" المستوى الأحادي للقراءة ، فهي تطرح عدة مسائل ، وقضايا ذات صلة بالمجتمع الجزائري في مرحلة حساسة من تاريخه الحديث ، ولهذا سيكون تركيزنا على الأبعاد الفنية والجمالية ،قصد منح جميع الإشارات والدلالات ما تتطلبه من تأويل وتخريج معرفي .

ذهب الكثير من النقاد والدارسين إلى أن رواية "الزلزال" هي العمل الفني الذي أظهر فيه الروائي دفاعه عن الاتجاه الاشتراكي من خلال مناصرته لمشروع الثورة الزراعية في مرحلة ما بعد الاستقلال ،وهذا ما نجده ماثلا في دراسات :الروائي "واسيني الأعرج " و "ادريس بوذيبة " و" مصطفى فاسي "* و محمد مصايف " وغيرهم من المشتغلين في مجال النقد والتحليل ، فكل هؤلاء تفاعلوا مع الكتابة الواقعية ،ورأوا فيها سندا إيديولوجيا أسس لكتابة روائية متميزة، وحتى لا نكرر ما أكدته هذه الدراسات النقدية القيمة ،نحاول

قراءة هذا النص الروائي قراءة كاشفة للمعنى المندس من وراء لعبة الدوال والسياقات اللغوية والأسلوبية .

ــ **مغامرة المكان /تأسيس الوعي بالتاريخ** : إن التاريخ المكتوب لا يمكنه قراءة أعماق المكان وتجليه كمقوم تاريخي يبني مسافات حنينية تقاوم الزمن والثبات، فوحدها الرواية قادرة على كتابة المشاعر التي " ما كان للتاريخ الرسمي أن يقدمها .." (20)

يضع الروائي شخصية "بولرواح" داخل فضاء تراجيدي مفجع وملعون وقيامي على حد تعبير الأستاذ (عمار بلحسن) * ، إذ يستحضر الروائي الهندسة المكانية لمدينة "قسنطينة " ويجعل منها صرحا جماليا وفنيا لأحداث ومشاهد روايته ، فنرى رحلة الشخصية ومغامرتها عبر الأمكنة والشوارع ،وهذا عن طريق التواصل الجسري (الجسور السبعة) .

يدخل بطل الرواية مدينة "قسنطينة " مسقط رأسه ومهد شبابه بعد غياب طويل ،ومن عمق هذه المدينة تتحول الفكرة إلى معالم و محطات نكشف من خلالها الرؤية التاريخية المرتبطة بدلالات المكان ، فرواية " الزلزال " تتجاوز موضوع الشخصية لترسم بعدا سوسيو ــ نصي يجعل من انفتاح الأمكنة تأويلا خاصا لقراءة الذات في علاقتها بالذاكرة والمكان ، وعليه نؤكد " أن الشخصية ليست مجرد موضوع يخص وعي الكاتب بل هي موضوع آخر غريب"(21) .

صحيح أن "بولرواح" هذا المالك العقاري والمتغيب عن أهله مدة ستة عشرة ستة ،يعود إلى موطنه الأصلي في يوم جمعة حار لتنفيذ مشروع مضاد للدولة التي قررت تأميم الأملاك العقارية وفق قانون الثورة الزراعية ، وهذا ماصرح به هونفسه كاشفا سبب هذه الرحلة :

"أتدري ما الذي أتى بي في هذا الحر الشديد ؟؟

لا ؟

جئت أسبقهم

من؟؟

الدولة

الدولة ؟؟

نعم قرب، المسألة سر ،ولا يعلمها إلا القليل النادر اسمع(22) فموضوع الشخصية لا يمكن طرحه إلا داخل أطر إجتماعية وتاريخية ، تتجاوز حـــدود الفكرة التي سيجها الموقف الإشتراكي ،أو الإيديولوجي المؤسس لهذا الخطاب ، خطاب السلطة المتسربة لرؤية الكاتب ،وعليه فإن تخوم الكتابة تصبح سندا وأداة لقـــراءة أخرى تبحث في المرجع وفي إمكانات المتخيل السردي ،كون نص "الزلزال " نصا كونته جملة من الخطابات المعرفية والثقافية يصعب فكها أوتصنيفها .

قسنطينة الجغرافيا تحولت إلى قسنطينة المتخيل فأصبحت فضاء مفتوحا، كمدينة تاريخية لها حضورها المتميز والهام في تاريخ المدن الجزائرية، "فالمدن هي الذاكرة وهي التاريخ الحقيقي الصادق الذي لم تلوثه أقلام الساسة ورجال الحرب "(23).

تبدأ الرواية بهذا السياق الوصفي:

" حاسة الشم تطغى على باقي الحواس في قسنطينة في كل خطوة وفي كل التفاتة وفي كل نفس تبرز رائحة متميزة صارخة

الشخصية تقدم نفسها لأعصاب وقلب المرء.." (24)

إن هذا الاستهلال الوصفي يضع الشخصية في مواجهة المكان ،إذ تتموقع الحواس كمؤشر دال على هاجس القلق والخوف ،لتبدأ مغامرة الرحلة والبحث عن المجهول.

إن توسع الأمكنة في هذه الرواية جعل من الشخصية الروائية ذاتا " مرنة لكل التناقضات والاحتمالات .." (25) ، فبولرواح يتصارع مع الزمن ويقطع المسافات ، وفي كل حدث وموقف يكتشف محطة تعيد تأسيس ذاكرته من جديد ، ذاكرة متصدعة بين ماض سعيد قد ولى وحاضر تعيس يبعث في النفس الحسرة والألم ، فلم تعد (قسنطينة) تلك المدينة التي تركها في فترة الحكم الفرنسي ، حين كانت الأماكن والشوارع توحي بجو المدينة المفعـــم بالبساطة والإنشراح:

" ...وتتألق الأنوار وتنطلق العطور من الغادات الأوروبيات

والإسرائيليات اللائي يملأن الشوارع كالحوريات ،بهجة وحبورا " (26)

إن جميـــع المواصفات المكانيـــة توزعت عبر السرد الروائي بصورة متسلسلة ومنتظمة متابعة لأفعال وأقوال الشخصية ،وهذا ما جعل منطق السرد الروائي في هذا العمل يأخذ اتجاها ديالوجيا يعيد للمكان صورته وطابعه المميز ،إلى أن يتموقع الراوي وسط دائـــرة

وصفية طورت تقنية السرد ،إلى تقنية الراوي المتكلم ،وهذا ما يشكل هندسة مكانية جعلت من المكان بكل أوصافه(الشوارع ، الجسور ،المحلات ،المؤسسات .....) تيمة مهيمنة : (them dominant) هدفها الأساسي هو محاصرة وضعية اجتماعية تحيل إلى وضعية اجتماعية تتصارع فيها عدة خطابات سياسية وتاريخية واجتماعية *ومن هذه النظرة تمتد خيوط الرواية لتشتغل على محورين أساسيين ،وهما :الذاكرة والمكان،ففي البحث عن الأقارب يكون "بولرواح "قد أسس مغامرة وجدانية جعلت منه شخصية إشكالية بمفهوم " لوكاتش" .

إذ تتمركز الهوية التاريخية وتصبح شاملة للفرد الجزائري الذي صنعته خطابات غير ناضجة في ذهنه ، لا تؤهله لقراءة تاريخه وواقعه قراءة تدفع لترسيخ الكينونة ومعنى الوجود ، ولهذا نفهم سر هيمنة ، تناوب الراوي السارد مع الشخصية ،وكذا توظيف ضمير الغائب " بحيث يصبح في مقدور الراوي الحديث عن الطبيعة الفكرية والنفسية للشخصية " (27) وهذا ما يجعلنا نلتمس في (الزلزال) شيئا من الحفر المعرفي في أبعاد المكان ، للاستدلال على قدرة الذاكرة في أن تستعيد ماضيها وفق ايحاءات مستمدة من الحاضر. وبهذا المفهوم فإن المكان " يساهم في خلق المعنى داخل الرواية ولا يكون دائما تابعا أو سلبيا بل إنه أحيانا يمكن للروائي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبيرعن موقف الأبطال من العالم .."(28) وبهذه الرؤية تنتقل صورة "قسنطينة " من مجال الوصف الخارجي، لتغدو متخيلا سرديا حاضنا للمكونات التاريخية المرتبطة بالذاكرة وسياقات الحنين ، ففي كل حدث وفي كل مسافة يقطعها " بولرواح " نكتشف مرجعا تاريخيا يفرض سلطته على الشخصية ويجعلها غير قادرة على هضم الحاضر واستيعابه :

"الشيء يثقل في صدري ،ويسري مع شراييني وأعصابي ،متسللا إلى مفاصلي وعضلاتي ومخي أخرج إ'لى حافة الصخرة...." (29)

وبهذا الطرح تتحول " جسور قسنطينة " إلى دلائل معرفية ، نقرأ من خلالها جماليات الوصف الذي أدمج موقع الشخصيات في رؤيتها للعالم والأشياء ،ومن ثم تتكثف صورة الجسر لتدل على جملة التراكمات المعرفية المؤسسة للذهنية العربية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة ،ومن جهة أخرى ،فالجسر هو المعبر الحاسم ورمز التحول في

حياة " بولرواح " ، فمن خلاله يتمركز الماضي والحاضر في بنية ثنائية شكلـــت تصدعا وشرخا في تركيبة " بولرواح " الذهنية ، وكأن المكان الروائي ــ بهذه المواصفات ــ هو تخصيص مكان أخر يكمل المكان الواقعي الذي يستحضره *

فمن خلال بنية التحول تنساب كل المعطيات التاريخية حول المكان فلا نقرأ إلا حالات مرعبة ويائسة من حاضر البلاد ، يقول " بولرواح " وهو بعبر جسر سيدي راشد:

" في حالة الزلزال ، تتحول هذه الساحة إلى بالوعة عظمى ، تدفع غربا وشمالا إلى سيدي مسيد ، وتدفع شرقا وجنوبا إلى سيدي راشد .إنهاشييء عظيم تذهل المرضعة عما أرضعت وتسقط الحامل ،وتدوخ الناس ،صاحب الدابة حين يمر على المدينة يضطر لحمل ساكنيها الآثمين كلهم بلا تمييز ..... " (30) ،وعلى هذا النحو يتحول المكان في هذا العمل الروائي إلى اشارة دالة تضع ا لبطل في موقف صراع مستمر مع كل المعالم الحضارية لمدينـــة " قسنطينة " والتي بدت كأفــق مفتوح " يعكس امتداد أفق الشخصية واتساع رؤيتها .. " (31) ، فكل هــذه العناصر " زادت مــن غموض الرؤيـــة الروائية وهوما فتح المجال لتأويلات عديدة لطبيعة الصراع في هذه الرواية ,, " (32) .

إن الموقف الجدلي الذي وجدت فيه الرواية يجعلنا نستحضر ،جمالية قراءة الأمكنةالمتولدة عن طريق الذاكرة ، والأمكنة الحاضرة كمشاهد حداثية ، مما يجعلنا نتحسس رؤية الكاتب التي تحمل في طياتها رغبة عارمة فـــي إحـــداث تغييـــر في المكان والمحيط ، كما يرى الأستـــاذ " ادريـــس بوذيبـــة " *

الهـــــوامش

[1] – الطاهر وطار :رواية ،الزلزال ،موفم للنشر ،2007 الجزائر ،ص 5 .

[2] – مصطفى فاسي :دراسات في الرواية الجزائرية ،دار القصبة للنشر ،الجزائر2000 ص 31.

[3] – الزلزال : ص 7 .

[4] – الزلزال : ص13 .

[5]– الزلزال : ص 23/22.

[6] – الزلزال:ص 31 ,

[7]– الزلزال :ص 96 .

[8] – مصطفى فاسي دراسات في الرواية الجزائرية ص41 .

[9] – الزلزال :ص93 .

[10]– الزلزال :ص132.

[11]– الزلزال :ص143.

[12] – الزلزال :ص 147.

[13] – الزلزال :ص 147.

[14]– الزلزال :ص161.

[15] – الزلزال:ص165.

[16] – الزلزال : ص171.

[17] – الزلزال ص176.

[18] – مصطفى فاسي :دراسات في الرواية الجزائرية ،ص 44.

[19] - pierre zima poure une sociologie du texte Litteraire edition1978 ine dit p 36

* – رأينا أنه ليس من الفائدة في هذا المقام ،أن نعيد ماقاله جمهورالباحثين في شأن الإيديولوجيا الاشتراكية في روايات "الطاهر وطار ".

[20]– صالح ولعة : ا لمكان ودراما المكان في رواية عالم بلا خرائط ،لجبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف مجلة التبيين ع16 2000الجزائر ص54.

* ينظر : عمار بلحسن : صراع الخطابات ،حول القص والإيديولوجيا في روايـــة الزلزال، للطاهر وطار مجلة فصول ،م8 ع1 1989مصر.

[21] – محمد رياض وتار :شخصية المثقف في الرواية العربية السورية ،اتحاد الكتاب العرب دمشق ،2000 ص 22 .

[22] – الزلزال :ص 22 .

[23] – صالح ولعة :المكان ودراما المكان في رواية عالم بلا خرائط لجبرا ابراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف ،مج التبيين ع 16 2000 ص53.

[24] – الزلزال :ص 5.

[25] – ادريس بوذيبة :الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطارمنشورات جامعة منتوري قسنطينة2000 ص196.

[26] – الزلزال : ص7 .

[27] – دبي كوكس ، روايات الطاهر وطار بين خطاب السلطة والنقد الإجتماعي ،ترجمة بوعلي كمال مج التبيين ع 16 2000 ص191

[28] – حميد لحميداني : بنية النص السردي ، من منظور النقد الأدبي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ،ط 3 2000 ص70 .

[29] – الزلزال ص 31 .

[30] – الزلزال ص .

[31]– محمد رياض وتار : شخصية المثقف في الرواية العربية السورية ،اتحاد كتاب العرب 2000 ص 188 .

[32] – دبي كوكس : روايات الطاهر وطار بين خطاب السلطة والنقد الإجتماعي ،مج التبيين ع 16 2000ص 72 .

* ينظر : ادريس بوذيبة ، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار ص 189.